دراسات عالمية

Panton 5575 C



المثلث الدامي
أفغانستان وباكستان والهند

وليام داريمبل

تصوير

أحمد ياسين



مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية

العدد 138



المثلث الدامي

أفغانستان وباكستان والهند

مركـز الإمـارات للدراسـات والبحـوث الاسـتـراتيجيـة

أصبحت إصدارات مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، علامة مسجلة للجودة والدقة العلمية في كل أنحاء العالم العربي، ومراجع لا غنى عنها للأكاديميين والباحثين والمختصين في شتى فروع العلم، والراغبين في الاستزادة من المعرفة في أرفع صورها. وفي الذكرى العشرين لإنشائه، في مارس/ آذار 2014، كان مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية قد أضاف إلى المكتبة العربية ألف إصدار، غطت طيفاً واسعاً من التخصصات والموضوعات الواقعة ضمن نطاق اهتمامه، من السياسة والاقتصاد والإعلام إلى مجالات الاستراتيجية والمعلوماتية والعلوم العسكرية.

ويضمن مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، من خلال عملية مُحكمة يقوم بها فريق عمل متميز القدرات والمهارات، خروج إصداراته شكلاً ومحتوى وفق أرقى المعايير المطبقة عالمياً، وبما منحه ريادة تمثلت حصيلتها في عدد كبير من الجوائز المتخصصة التي فازت بها إصداراته.

وتضاف هذه الإصدارات إلى سجل طويل من الأنشطة العلمية والبحثية التي يضطلع بها مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، ودوره المؤثر في صناعة القرار في دولة الإمارات العربية المتحدة.

وفي هذا الإطار يصدر المركز سلسلة "دراسات عالمية" التي تعنى بترجمة أهم الدراسات والبحوث التي تنشر في دوريات عالمية مرموقة، وتتصل موضوعاتها باهتمامات المركز العلمية، كما تهتم بنشر البحوث والدراسات بأقلام مشاهير الكتاب ورجال السياسة.

رئيس التحرير: **أمل عبدالله الهدّابي**

دراســات عــالميـــة

المثلث الدامي

أفغانستان وباكستان والهند

وليام داريمبل

العـدد 138



تصدر عن



مركـز الإمـارات للدراسـات والبحـوث الاسـتـراتيجيـة

محتوىٰ الدراسة لا يعبر بالضـرورة عن وجهة نظر المركز

This is an authorized translation of "A Deadly Triangle: Afghanistan, Pakistan, and India," by William Dalrymple, and published by The Brookings Institution (June 25, 2013). The ECSSR is indebted to the author and original publisher for permitting the translation, publication and distribution of the above title under its name.

الطبعة الأولى 2014

ISSN 1682-1211

النسخـــة العاديـــة ISBN 978-9948-14-887-6

النسخة الإلكترونية ISBN 978-9948-14-888-3

توجه المراسلات باسم رئيس تحرير سلسلة **دراسات عالمية**

على العنوان الآتي:

مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية

ص ب: 4567

أبوظبي، دولة الإمارات العربية المتحدة

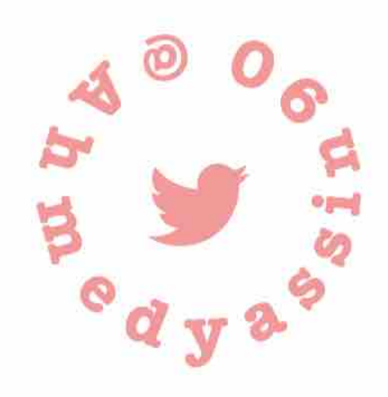
هاتف: +9712-4044541

فاكس: +9712-4044542

E-mail: pubdis@ecssr.ae

Website: http://www.ecssr.ae

المحتويات


@Ahmedyassin90

مقدمة

تلقي هذه الورقة نظرة على حاضر أفغانستان ومستقبلها مع اقتراب انسحاب الولايات المتحدة الأمريكية من أطول حرب في تاريخها؛ وتلحظ الورقة خطر الصراع المتزايد بين باكستان والهند؛ وهما القوتان الذريتان اللتان يمكنهما تهديد السلم العالمي.

الناجي الوحيد

في الساعة السادسة من صباح السادس والعشرين من فبراير 2010، استيقظت الرائد ميتالي مادوميتا على رنين هاتفها المحمول. ميتالي، ذات الخمسة والثلاثين عاماً، هي ضابط في الجيش الهندي من أوريسا، أمضت في كابول أقل من عام. توجهت إلى هناك، بفضل إتقانها اللغة الدارية Dari، وهي اللغة الأكثر تحدثاً في أفغانستان، وذلك لتعليم اللغة الإنجليزية لأول مجموعة من المجندات المرشحات للالتحاق بالجيش الوطني الأفغاني.

كانت المهمة حساسة، ليس بسبب قضايا النوع (ذكر وأنثى) بقدر ما هي قضايا سياسية؛ فباكستان، منافسة الهند الإقليمية، كانت شديدة الحساسية بخصوص المساعدات العسكرية الهندية للحكومة في أفغانستان، وأوضحت تماماً أنها تعتبر وجود أي جندي أو مدرب هندي هناك استفزازاً غير مقبول. لهذا السبب، كل شخص في الفريق الصغير لتعليم اللغة الإنجليزية التابع للجيش الهندي، ومن بينهم ميتالي، وكل الأطباء والممرضين الموظفين في مستشفى أنديرا غاندي للأطفال الجديد في كابول، تم إرسالهم إلى أفغانستان غير مسلحين وبلباس مدني. ولم يقيموا في ثكنات عسكرية أو في السفارة الهندية، بل في مجموعة دور ضيافة صغيرة، غير معلنة، ومنتشرة حول الحي الدبلوماسي في المدينة.

كانت المكالمة الهاتفية من صديقة ميتالي التي عملت في الخطوط الجوية الهندية في مطار كابول. وقالت بأنفاس متقطعة، إنها سمعت للتوّ بأن مسلحين هاجموا دارَينِ من دور الضيافة الهندية، هما دارا "بارك" و"حامد". ولأن ميتالي هي الأنثى الوحيدة في فريقها، فقد كانت تقيم في مسكن منفصل يبعد ميلين عن بقية زملائها الذين كانوا يقيمون في دار "حامد". وخلال ثوانٍ، ارتدت ميتالي ثيابها بما في ذلك الحجاب الذي كانت مجبرة على

ارتدائه، وبدأت بالركض وحيدة ومن دون سلاح في طرقات كابول صباحاً والخالية من المارة باتجاه دار "حامد".

ومؤخراً في نيودلهي قالت لي: «ظننتُ أنهم قد يحتاجون إلى مساعدتي».

عندما عبرت ميتالي مسرعةً أمام السفارة الهندية، تعرف أحد حراس الأمن الدبلوماسي عليها وصرخ فيها لتتوقف، قائلاً إن المنطقة حول دور الضيافة تعمها الفوضى، وطلب منها ألا تكمل الطريق وحيدة، وأن تعود فوراً إلى مسكنها وتبقى هناك.

وردّت عليه ميتالي صارخة: «أنا لست بحاجة لإذن منك لأنقذ زملائي»، وأكملت طريقها مسرعة. وعندما تجاوزت المجمّع الرئاسي، أُوقفت هذه المرة تحت تهديد السلاح عندما اعترضها حاجز عسكري للجيش الأفغاني. وبعد خمس دقائق، كانت قد أقنعت أحد الحراس بإيصالها في مركبته العسكرية، وسرعان ما سمعوا أصوات الطلقات من أسلحة آلية، وطلقات متفرقة من بنادق، ثم أصوات انفجارات ناجمة عن قنابل.

«مع اقترابنا من المنطقة التي تتعرض للهجوم، قفزتُ من المركبة وركضت مباشرة نحو ركام دار "حامد" للضيافة. كانت تباشير الصباح قد بدت تلقي بضيائها، بيد أنه بسبب كل الغبار والدخان، أصبحت الرؤية شبه معدومة وبات من الصعب رؤية أي شيء. لقد تهدم الجزء الأمامي من الدار بالكامل، ولم يكن هناك سوى حفرة ضخمة. تحول كل شيء إلى أنقاض. لقد صدمت سيارة مفخخة البوابة الأمامية للمجمّع ودمرت الجزء الأمامي منه. ثم ظهر ثلاثة مسلحين وبدؤوا بإطلاق النار على أي كائن بقي حياً. ولم أتفوّه إلا بجملة "يا إلهي" ثم ركضت نحو الداخل».

«شققت طريقي عبر الدخان إلى المنطقة الخلفية التي كان يقيم فيها زملائي. الجدران هنا كانت لاتزال قائمة ولكن السقف كان قد انهار؛ فقد أطاح الانفجار السقف بالكامل وتناثر قطعاً على الأرض. كان هناك تبادل لإطلاق نار من كل مكان حولي، وكان المسلحون يلقون قنابل حارقة صينية الصنع. وكان جنود أفغان قد اتخذوا مواقعهم على سطح دار "بارك" في الشارع المقابل وكانوا يردّون بالمثل على إطلاق النار. لم أستطع رؤية المسلحين ولكنهم كانوا مختبئين حولي في مكان ما».

«بأقصى ما استطعت من الهدوء، ناديتُ على زملائي وذهبت إلى حيث كانت غرفهم، ولكني لم أجدهم في أي مكان. بحثت بين الحطام... وبعد وقت قصير، بدأتُ بسحب جثث القتلى... لاح رجل في الظلام، وناديت عليه ليعرّف عن نفسه، ولكنه لم يكن إرهابياً بل كان ضابط الاستخبارات في سفارتنا وبدأ بمساعدتي. استطعنا معاً إنقاذ عدة أشخاص مصابين وسحبناهم من بين الحطام إلى برّ الأمان».

«ثم سمعنا صوت انفجار رهيب. علمنا لاحقاً أن الرائد جيوتِن سينغ هاجم انتحارياً، وأمسك به من الخلف، ومنعه من دخول دار "بارك"، فاضطر الانتحاري إلى أن يفجر نفسه في الخارج. لقد أنقذ جيوتِن حياة كل الطاقم الطبي الذي كان في الداخل».

«ولكن الوحيد من زملائي الذي لم يقتل فوراً، هو الرائد نيتيش روي، الذي مات في المستشفى بعد ثلاثة أيام متأثراً بالحروق التي أصابت 40٪ من جسده. كنتُ الوحيدة من فريقي التي عادت حيّة».

بالمجمل، قتل في الهجوم ذلك الصباح 18 شخصاً، من بينهم تسعة هنود، وأصيب 36 شخصاً. وُجدت جثة مساعد القنصل العام من قنصلية الهند الجديدة في قندهار بين القتلى تحت الركام. هذه القنصلية بالذات كانت مصدر قلق بالنسبة إلى الباكستانيين، الذين اتهموها بأنها قاعدة لـ "جهاز البحث والتحليل" Research and Analysis Wing؛ وهو وكالة الاستخبارات الهندية الخارجية. اعتقد الباكستانيون أن هذا الجهاز كان يموّل التمرد في بلوشستان ويسلّحه ويشجع عليه، وهو الإقليم الذي خاض صراعاً انفصالياً عن دولة باكستان الجديدة منذ إعلان ضمّه إليها في عام 1947.

لم يكن صعباً اكتشاف الدافع وراء الهجوم. فسرعان ما اقتفت الاستخبارات الأمريكية والأفغانية العملية وتوصلتا إلى أنها كانت مهمة مشتركة بين تنظيم حقاني بقيادة جلال الدين حقّاني، الذي هو تنظيم يخضع لسيطرة باكستان، وهو عبارة عن مجموعة مسلحة مرتبطة بحركة طالبان، وبين منظمة لشكر طيبة (جيش الصلاح) وهي جماعة معادية للهند وتتخذ من باكستان مقراً لها، ونفذت هجمات على فندق "تاج" وأهداف أخرى في مومباي في نوفمبر 2008. ويُعتقد أن كلتا المنظمتين تتلقى أوامرها من وكالة الاستخبارات الباكستانية ذات الصلة الوثيقة بالجيش.

لم تعلق باكستان علناً على الهجوم، لكنها رفضت السماح للطائرات التي تقل جثث الضحايا بعبور مجالها الجوي إلى الهند.

الصراع الهندي - الباكستاني على أفغانستان

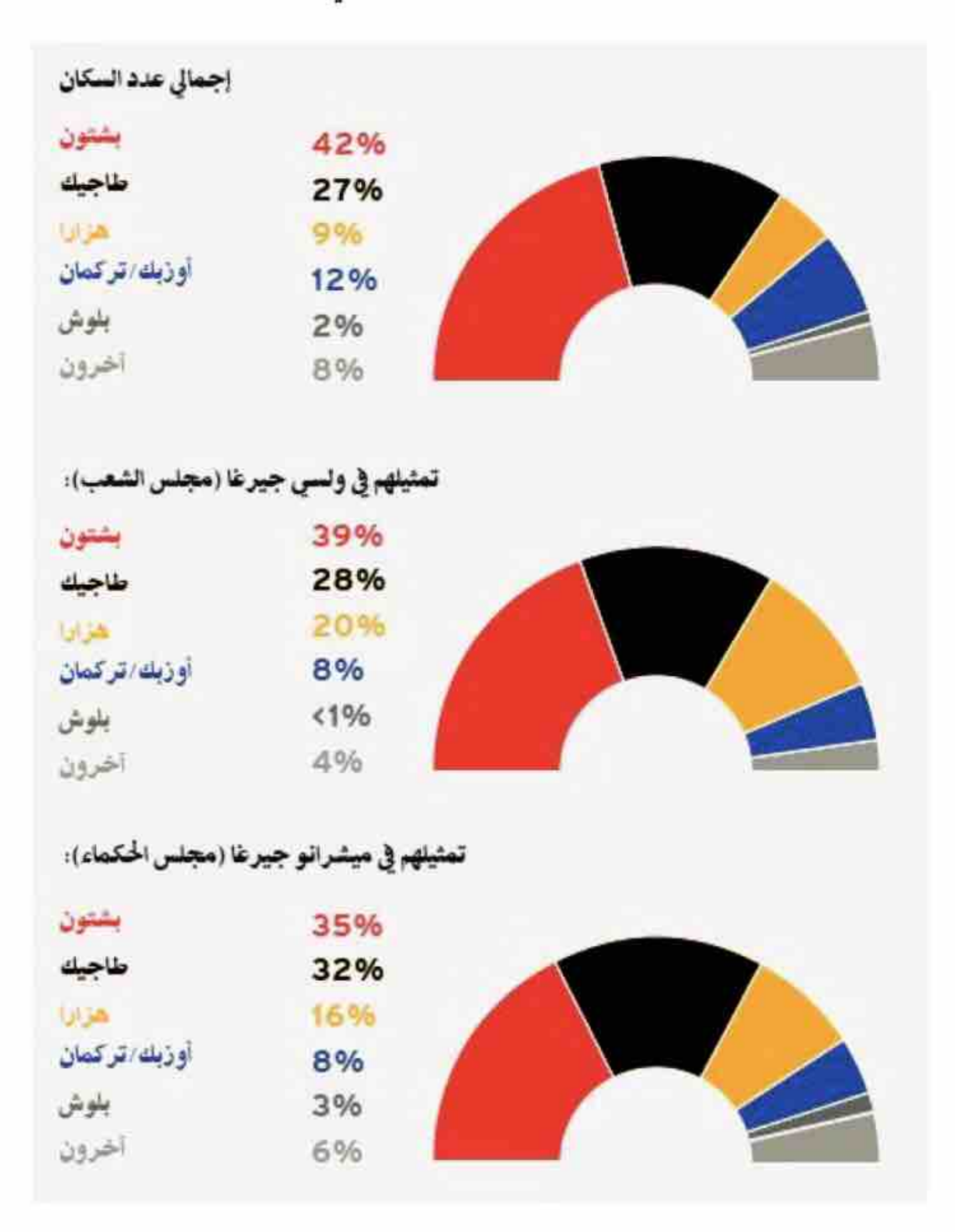
كان هجوم فبراير 2010 على دور الضيافة الهندية فعلاً عدائياً علنياً نادراً في تاريخ الصراع الهندي – الباكستاني الخفي، والمتبادل على نحو متقطّع منذ أكثر من ستين عاماً، وهما تتنافسان على النفوذ في أفغانستان. في الواقع، لم يكن هذا الفعل فريداً من نوعه، بل كان الثالث في أقل من ثلاث سنوات.

قبلها بخمسة عشر شهراً، في الثامن من أكتوبر 2009، حصل انفجار سيارة هائل ومدبّر خارج سفارة الهند في كابول، مخلّفاً 17 قتيلاً و63 مصاباً. معظم القتلى كانوا من الأفغان العاديين تصادف وجودهم في المنطقة المستهدفة. وأصيب عدد محدود من أفراد الأمن الهنود، غير أن الجدران – المحصنة ضد التفجير التي كانت قد أقيمت بعد انفجار أكثر دموية في السنة التي سبقتها تاركاً 40 قتيلاً وأكثر من 100 جريح، ويعتقد أيضاً أنه تم برعاية باكستانية – حرفت قوة الانفجار، فاقتصر الضرر المادي في السفارة على تحطم بعض الأبواب والنوافذ. في حالة انفجار عام 2009، أعلن مسؤولون أمريكيون عن تفاصيل بشأن اعتراض اتصالات هاتفية، كشفت، على حد قولهم، تورط وكالة الاستخبارات الباكستانية.

يكمن العداء بين الهند وباكستان في قلب الحرب الحالية في أفغانستان. وينظر معظم المراقبين في الغرب إلى النزاع الأفغاني بوصفه معركة بين الولايات المتحدة الأمريكية وقوات المساعدة الدولية لإرساء الأمن في أفغانستان (إيساف) بقيادة حلف شمال الأطلسي "الناتو" من جهة، وبين تنظيم القاعدة وطالبان من جهة أخرى. في الحقيقة، هذه الحال لم تعد كذلك منذ زمن طويل، فباتت قواتنا الآن عالقة في حرب معقدة شكّلها نزاعان متداخلان وقديمان: الأول محلي داخلي، والثاني إقليمي.

الشكل (1)

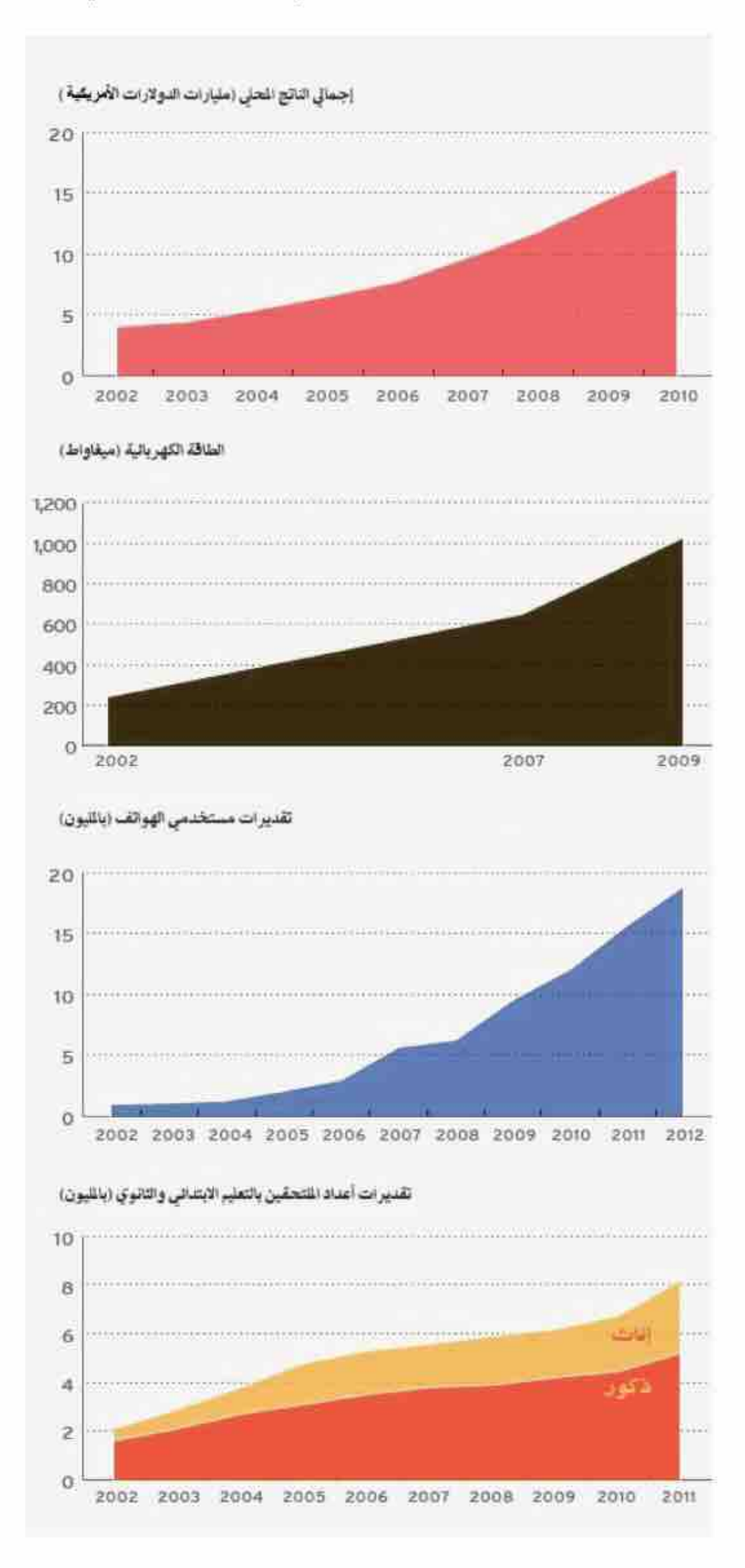
الجماعات العرقية الأفغانية وتمثيلها في الحكومة



داخل أفغانستان، يُنظر إلى الحرب بشكل أساسي على أنها تمرد البشتون ضد نظام الرئيس حامد كرزاي الذي مكّن ثلاث مجموعات عرقية أخرى، هي الطاجيك والأوزبك والهزارة الذين ينتشرون في شمال البلاد، إلى حد أثار استياء البشتون. على سبيل المثال، على الرغم من أن الطاجيك يشكلون 27٪ من عدد السكان في أفغانستان، فإنهم يمثلون 70٪ من الضباط في الجيش الأفغاني.

الشكل (2)

المؤشـرات الاقتصادية وجودة الحياة في عهد حامد كرزاي



وعلى الرغم من أن كرزاي نفسه هو من قومية البشتون، فإن كثيراً من أبناء قبيلته يرون أن وجوده لا يعدو كونه واجهة لسلطة الولايات المتحدة الأمريكية التي رسختها منذ عام 2001 عندما أطاحت حركة طالبان البشتونية.

كان البشتون قد أمسكوا بزمام الحكم في السياسة الأفغانية منذ أن وُضعت حدود الدولة الحالية في ستينيات القرن التاسع عشر. وبانحياز الولايات المتحدة إلى جانب الطاجيك في الأقاليم الشمالية ضد البشتون في الجنوب، وجدت نفسها تتعاون مع قوى العلمانية ضد الإسلام المسلح؛ ولكنها كانت، عن غير قصد، تنحاز إلى أحد أطراف حرب أهلية معقدة مستمرة منذ سبعينيات القرن العشرين، وتعود جذورها إلى أبعد من ذلك بكثير. وحتى يومنا هذا، ولأن البشتون يشعرون بأنهم محكومون من قبل أعدائهم السابقين، يدعم كثير منهم حركة طالبان أو على الأقل يشعرون ببقية من التعاطف معها.

هناك أيضاً عامل بشتوني داخلي قديم في النزاع، يضع عناصر حركة طالبان من قبيلة إشكزاي وبعض قبائل نورزاي وأخاكزي ومعظم قبيلة غلزائي، وبخاصة الهوتاك وتوخي غلزائي، في مواجهة قبائل دراني البشتونية الأكثر "مؤسساتية"، وهي: بركزي وبوبلزي وعلي كوزي.

وخلف هذا النزاع المتأصّل، يلوح العداء الأكثر خطورة بين قوتين إقليميتين، تمتلك كل منهما السلاح النووي؛ هما الهند وباكستان. والتنافس بينهما يمكن أن يستعر على وجه الخصوص، نظراً لأنهما يسعيان للاستحواذ على النفوذ في أفغانستان. ومقارنة بذلك التنافس الطويل والدامي، فإن الولايات المتحدة وقوة إيساف تقومان بدور صغير نسبياً، ولكنهما، على العكس من الهنود والباكستانيين، تتجهان نحو الخروج من ذلك النزاع.

منذ تقسيم شبه القارة الهندية في عام 1947، خاضت الهند وباكستان ثلاث حروب، آخرها في عام 1971، غير أنهما إبان أزمة عام 1999، بدا أنهما على حافة تصعيد نووي، عندما اجتازت قوات باكستانية خط الهدنة واحتلت 500 ميل مربع من الشطر الهندي من كشمير، بما في ذلك مركز حدودي في الهيمالايا بالقرب من بلدة كارغيل. مع تزايد التوتر، اتخذت باكستان خطوات منذرة بالشؤم في ما يتعلق بترسانتها النووية. وتوسط الرئيس

الأمريكي بيل كلينتون لإيجاد حل، وفي أعقاب مفاوضات مكثفة في "بلير هاوس" في واشنطن خلال عطلة نهاية الأسبوع الرابع من يوليو، أقنع كلينتون رئيس الوزراء الباكستاني نواز شريف بأن يأمر قوات بلاده بالتراجع إلى الجانب الباكستاني من خط الهدنة. وكلّف ذلك التنازل نواز شريف منصبه، بل كاد يكلفه حياته. فقد قام قائد الجيش آنذاك، برويز مشرف بانقلاب وحكم على نواز بالإعدام. إلا أن كلينتون تدخّل، وتم نفي نواز إلى المملكة العربية السعودية.

من السهل فهم سبب شعور باكستان بانعدام الأمان. ذلك أن عدد سكان الهند البالغ 1.2 مليار نسمة واقتصادها (إجمالي ناتجها المحلي يبلغ 1.4 تريليون دولار) يُقدّران بثمانية أضعاف ما تتحلى به باكستان (180 مليون نسمة وناتج إجمالي محلي قدره 210 مليارات دولار فقط). خلال الفترة الأكثر نمواً في الهند (2006–2010)، وفي أربع سنوات منها كانت الزيادة السنوية في الاقتصاد الهندي تكاد تعادل الاقتصاد الباكستاني كله.

بالنسبة إلى العالم، لم يبدُ التباين بين البلدين يوماً بالوضوح الذي عليه الآن: بلد ينظر إليه باعتباره القوة العظمى المقبلة، مشهور بعباقرة البرمجيات، وحسناوات بوليوود، واقتصاده السريع النمو، وأقطاب الثراء الفاحش؛ والثاني مصنّف باعتباره دولة فاشلة، ومركز التشدد الإسلامي في العالم، ومخبأ أسامة بن لادن، والحليف الوحيد للولايات المتحدة الذي تخترق واشنطن مجاله الجوي وتقصف قراه بصورة دورية. مهما كانت هذه الصورة النمطية غير منصفة، فإنه ليس من المدهش أن يرى كثير من الباكستانيين في جارتهم العملاقة تهديداً لوجود دولتهم.

لقد طوّر المخططون الباكستانيون منذ زمن، للدفاع عن أنفسهم، مذهب "العمق الاستراتيجي". ويعود أصل الفكرة إلى عام 1971، عندما سحقت الهند باكستان في أقل من أسبوعين في حربهما الثالثة. وانتهى النزاع إلى انفصال باكستان الشرقية، التي ثارت ضد باكستان الغربية، وأعلنت دولة بنغلاديش المستقلة. ووفقاً للرواية الباكستانية، أدى تقطيع أوصال بلادهم، الذي يلومون الهند عليه، إلى زيادة أهمية إقامة علاقات ودية مع أفغانستان والمحافظة عليها، ويرجع سبب ذلك إلى حد كبير إلى ضمان ملجأ آمن في حال

نشبت حرب مستقبلية جديدة مع الهند. وتوفر الحدود الهشة طريقاً يمكن للزعماء الباكستانيين والقوات الباكستانية والمنشآت القيّمة الأخرى، ومن ضمنها السلاح النووي، الانسحاب من خلالها إلى الشمال الغربي في حال حدوث اجتياح هندي.

من أجل أن تنجح الفكرة، من الضروري أن تكون الحكومة الأفغانية حليفاً مقرباً لباكستان، ومستعدة للمساعدة في محاربة الهند. عندما كانت حركة طالبان في الحكم، كان ينظر إليها باعتبارها الشريك المثالي للجيش الباكستاني. وعلى الرغم من أن الغرب كان ينظر إليها باعتبارها حركة من القرون الوسطى إن لم تكن همجية، فإن نظام طالبان كان يحظى بأهمية في باكستان نظراً لعدائيته الشديدة للهند، ومن ثم، فقد استحق مساعدة باكستان وأسلحتها.

بعد أن أطاحت الولايات المتحدة نظام طالبان بعد هجمات الحادي عشر من سبتمبر 2001، طرأ تحوّل استراتيجي؛ إذ أصبحت الحكومة الأفغانية حليفة للهند، محققة بذلك أسوأ مخاوف الباكستانيين. فرئيس أفغانستان بعد نهاية نظام طالبان، أي حامد كرزاي، كان يكنّ كراهية شديدة لباكستان، وسبب ذلك جزئياً اعتقاده أن وكالة الاستخبارات الباكستانية ساعدت على اغتيال والده في عام 1999. وفي الوقت نفسه، شعر برابط قوي مع الهند التي ارتاد إحدى جامعاتها في مدينة سيملا في الهيمالايا، التي كانت يوماً العاصمة الصيفية للهند البريطانية. وعندما قابلتُ كرزاي في كابول، أوائل مارس [2013]، تحدّث بشغف عن أيامه في سيملا التي وصفها بأسعد أيام حياته، وكادت تفيض الدموع من عينيه حين استذكر أصوات الأمطار الموسمية وهي تتساقط على سقف الصفيح لمساكن الطلاب، ومشهد تشكيلات الغيوم الجميلة وهي تمر أمام نوافذه. كما عبّر عن حبه للطعام الهندي واعترف بإعجابه بالأفلام الهندية. وينظر كرزاي إلى الهند باعتبارها دولة ديمقراطية ومستقرة وغنية نسبياً، أي الشريك الأفضل لأفغانستان، أو "الصديق المفضل"، كما دأب على وصفها.

بوجود كرزاي في السلطة، انتهزت الهند الفرصة لزيادة تأثيرها السياسي والاقتصادي في أفغانستان؛ ووفّرت مساعدات أساسية لإعادة الإعمار تقدر قيمتها بنحو 1.5 مليار دولار، إضافة إلى 500 مليون دولار وعدت بتقديمها خلال السنوات القليلة المقبلة.

ومع ذلك، فإن الوجـود الهنـدي في أفغانسـتان مـازال متواضـعاً حتـى الآن؛ فوفقـاً لمصادر دبلوماسية هندية، هناك أقل من 3600 هندي في أفغانستان، جُلهـم تقريبـاً رجـال أعمال، وعمال بعقود في قطاعات الزراعة والاتصالات والصناعة والتعدين. ويوجد فقـط 10 دبلوماسيين، مقارنة بـ 140 مسؤولاً في سفارة بريطانيـا، و1200 في سـفارة الولايـات المتحدة الأمريكية. ولكن الجيش الباكسـتاني، الـذي يـتحكم بفاعليـة بسياسـة باكسـتان الخارجية، يبقى مرتاباً حتى بخصوص وجودٍ هندي بهـذه الضـآلة في مـا يرونـه سـاحتهم الخلفية الاستراتيجية الأفغانية، كما كان الإنجليـز مرتـابين بخصـوص وجـود الـروس في أفغانستان إبان "اللعبة الكبرى".

بالنسبة إلى الجيش الباكستاني، تعد الهند التهديد الأساسـي الذي يتصدر كـل الأهـداف الجيوسياسية والاقتصادية الأخرى. وبلغت خشية باكستان من وقوعهـا بـين فكـي الكمّاشـة الهندية إلى الحد الذي دفع وكالة الاستخبارات الباكستانية إلى اتخاذ إجراءات عرّضـت الأمـن الباكستاني الداخلي للخطر، وكذلك علاقتها بحليفهـا الاسـتراتيجي الأساسـي؛ الولايـات المتحدة الأمريكية. وخلال معظم فترات العقد الأخير، سعت وكالة الاستخبارات الباكستانية إلى إعادة طالبان إلى السلطة لكي تطيح كرزاي، ومن ثم التخلص من أصدقائه الهنود.

ولتحقيق هذا الهدف، اعتمد الجيش الباكستاني عـلى "الحـرب غـير المتماثلـة" أو غـير النظامية، وذلك باستخدام جهاديين لمصالحه الخاصة. وتعود هذه الاستراتيجية لأكثر مـن ثلاثين سنة خلت؛ فمنـذ بدايـة عقـد الثمانينيـات مـن القـرن العشــرين، عملـت وكالـة الاستخبارات الباكسـتانية بـوعي ودأب عـلى تمويـل جماعـات إسـلامية متطرفـة متنوعـة واحتضانها. ويخلص الصحفي الباكستاني أحمـد رشـيد إلى أن هنـاك أكثـر مـن 40 جماعـة متطرفـة تعمـل في باكسـتان، ومعظمهـا يحظـى بـروابط قويـة مـع وكالـة الاسـتخبارات الباكستانية وأحزاب سياسية إسلامية محلية.

ولطالما اعتبر الجنـرالات الباكسـتانيون الجهـاديين وسـيلة فعالـة، ويمكـن نفيهـا أو إخفاؤها، وذلك للتحكم بالأحداث في أفغانستان. وقد تحقق لهم ذلك لفترة محـدودة مـع استيلاء طالبان على كابول في عام 1996. وبالوسيلة ذاتها، أبقى الباكستانيون جـزءاً كبـيراً

من الجيش الهندي غارقاً في مستنقع كشمير منذ أن نشب التمرد الانفصالي في عام 1990. ويميل جنرالات الجيش الباكستاني إلى استخدام الجهاديين لأن ذلك يساعد على تعزيز الشعور القومي المُستند إلى هدفين؛ كراهية الهند، والترابط القوي للهوية الإسلامية.

من غير الواضح نسبة الباكستانيين المؤيدة لهذه الاستراتيجية ونسبة من يشكك فيها. لكن من الواضح أن في الجيش من يشعر بالقلق تجاه كمّ العنف الطائفي والسياسي الذي جلبه الجهاديون إلى باكستان. بيد أن تلك النظرة يفندها بعض قادة الجيش ووكالة الاستخبارات الباكستانية الذين مازالوا يؤمنون بأن الجهاديين يمثلون وسيلة دفاعية أكثر فاعلية ضد السيطرة الهندية حتى من الأسلحة النووية. وبالنسبة إليهم، فإن مساندة جهاديين تم انتقاؤهم بعناية في أفغانستان يعتبر استراتيجية بقاء أساسية تستحق المخاطرة. وكان الفريق أول أشفق برويز كياني، القائد العام للجيش الباكستاني، مرةً من هذا المعسكر. فكما قال في كلمة له في عام 2001: «استراتيجياً، لا يمكن أن يكون هناك جيش أفغاني على حدودنا الغربية يملك عقلية هندية وقدرات للاستيلاء على باكستان». أما عما إذا كان موقفه اليوم مغايراً، فتلك مسألة قابلة للنقاش.

ويجمع مراقبو باكستان على أن الوجود الهندي في أفغانستان لايزال يشكل القلق الأساسي لكياني، مع أنه يعي حجم تهديد طالبان في بلاده. وكما قال لي دبلوماسي إنجليزي رفيع في إسلام أباد: «في هذه اللحظة، أفغانستان هي كل ما يفكر [كياني] به، وكل ما يريد التكلم عنه. هي كل ما يجري اطلاعه عليه، وهي تركيز اهتمامه الأول. هناك حرب هندية - باكستانية بالوكالة، وهي تجري الآن».

الدولتان التوأم: أعداء منذ الولادة

تعود جذور التنافس الهندي - الباكستاني في أفغانستان إلى زمن تقسيم شبه القارة الهندية في عام 1947. فمع انسحاب البريطانيين من إمبراطوريتهم في الهند بعد الحرب العالمية الثانية، قاموا بتقسيم مستعمرتهم السابقة بين الهند ذات الأغلبية الهندوسية وباكستان ذات الأغلبية الساحقة المسلمة. وفي هذا السياق، أصبحت كشمير شوكة في حلق كلا البلدين. كشمير، التي كانت في عهد الهند البريطانية ولاية أميرية، أصبح

وضعها شاذاً بسبب التقسيم. فمع منطقة أغلبيـة سـكانها مـن المسـلمين، كانـت مرشـحة بديهياً للانضـمام إلى باكسـتان، ولكـن العواطـف الموالـية للهنـد لـدى كـل مـن المهراجـا الهندوسـي والسياسـي المسلم البارز شيخ عبدالله، بالإضافة إلى الأصول الكشميرية لأول رئيس وزراء للهند، وهو جواهر لال نهرو، أدت إلى بقاء الولايـة جـزءاً مـن الهنـد، وهـو الأمر الذي طالما اعتبرته باكستان غير مقبول.

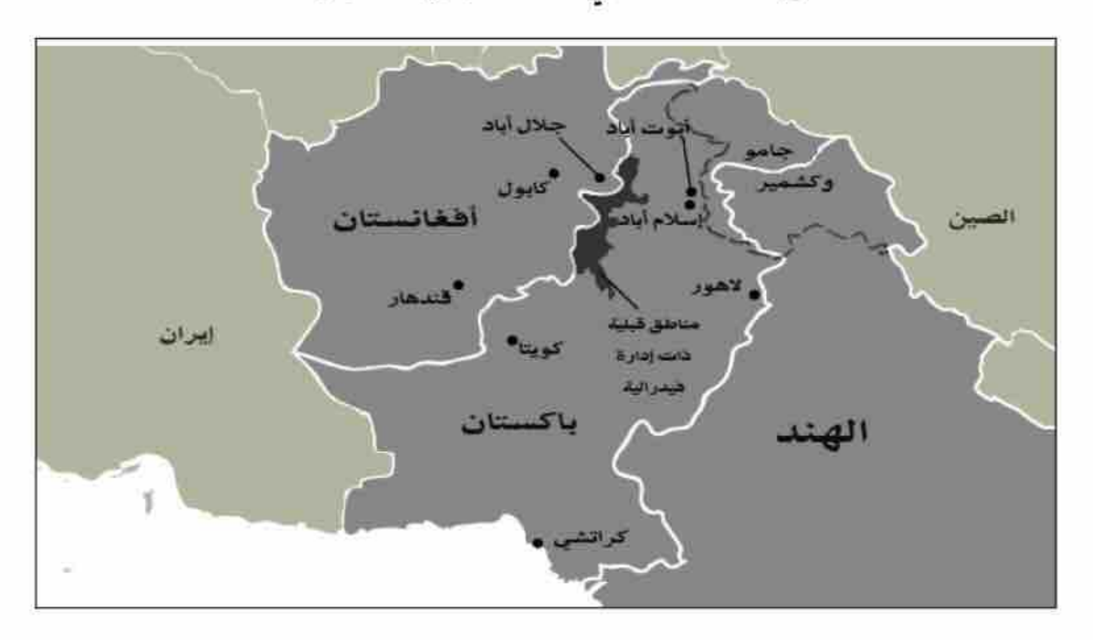
استخدمت باكستان المقاتلين القبليين غير النظاميين لأول مرة في كشمير عـام 1947، فأرسلت رجال قبائل البشتون عبر الحدود للزحف نحو سـريناغار، عاصمة كشـمير. وفي الطريق إلى سـريناغار نهبوا وقتلوا، وبين فظاعات أخرى، اغتصبوا وقتلـوا عـدة راهبـات أوروبيات وجدوهن في مستشفى ودير. واستطاعت القـوات الهنديـة أخـيراً صـد رجـال قبائل البشتون، بمساعدة بريطانية خفية، تمثلت في النقل الجوي بطـائرات نقـل بريطانيـة. وبموجب شـروط وقف إطلاق النار الموقـع عليـه في الأول مـن ينـاير 1949، أصـبحت كشمير فعلياً مقسّمة ما بين الهند وباكستان. ودخل البلدان في حرب أخرى حـول كشـمير في عام 1965، وقد ظلت منذ ذلك الحين سبباً للنزاع.

لم تكن الهند الوحيدة التي خطت بداية سيـئة مع دولة باكستان الحديثـة حينهـا. فقـد كانت علاقـة أفغانسـتان أيضـاً غـير مسـتقرة مـع "أرض الطهـارة" ("بـاك" Pak تعنـي الطهارة)، إذ إن أفغانستان كانت الدولة الوحيدة التـي عارضـت حصـول باكسـتان عـلى العضوية في منظمة الأمم المتحدة في عام 1947. وكما هي الحال مـع الهنـد، كانـت الحـدود والأراضـي محل خلاف. ولم يقبل القادة الأفغان مطلقاً خط دورانـد Durand line الـذي رسمه البريطانيون في عام 1893. وبعد التقسيم، لم تكن أفغانستان لتعـترف بـذلك الخـط على أنه حدودها مع باكستان. وكان الملك الأفغاني ظاهر شاه حريصاً على وجه الخصوص على استعادة بيشاور، الواقعة في وادٍ في أقصـى الجانب الشـرقي من ممر خيبر، والتي كانت ذات مرة العاصمة الصـيفية للإمبراطوريـة الأفغانيـة. وظلـت منـذ عـام 1845 في أيـدي البريطانيين، ثم أصبحت الآن جزءاً من باكستان. وحتى يومنا هذا، ينظر أغلبيـة الأفغـان إلى بيشاور باعتبارها مدينة أفغانية مفقودة.

سـريعاً، جمع البغض المشـترك لباكسـتان بـين الهنـد وأفغانسـتان بوصـفهما حليفـين طبيعيين. وفي عام 1950، وقّع البلدان معاهدة صداقة. وفي السـنوات اللاحقـة، حاولـت الهند وأفغانستان زعزعة استقرار باكستان، بمد يد المسـاعدة والمـأوى للقـوميين البشـتون والبلوش. وفي عام 1961، ساءت الأوضاع بين باكستان وأفغانستان كثيراً فأغلقتا الحدود وقطعتا علاقاتهما الدبلوماسية.

الشكل (3)

خريطة المثلث الدامي: أفغانستان وباكستان والهند



لم يكن الأمر الذي أجبر الحكومـة الأفغانيـة عـلى تحسـين علاقتهـا بباكسـتان سـوى الضغوط الناجمة عن تنامي النفوذ السوفيتي في أفغانستان في سبعينيات القـرن العشـرين. في عام 1977، استعان الرئيس الأفغاني داوود خـان بباكسـتان ليشـكل نوعـاً مـن تـوازن القوى مع السوفييت، وبدأ المحادثات مع رئيس الوزراء الباكسـتاني ذو الفقـار عـلي بوتـو بهدف حلّ خلافـاتهما المتعلقـة بالحـدود. ولكـن في إبريـل 1978، تمـت إطاحـة داوود في انقلاب يساري مدعوم من الاتحاد السوفيتي. وتمكنت الهند على أثره من استعادة مكانتهـا البارزة في كابول. وطوال عقد الثمانينيات، وسعت الهند نفوذها في أفغانستان، مـن خـلال المساهمة في سلسلة طموحة من المشاريع التنموية، مثل بناء مصانع ومرافـق توليـد الطاقـة الكهرمائية، بالإضافة إلى إشـرافها على مبادرات ريّ عديدة.

في هذه الأثناء، بدأت باكستان تسليح المجاهدين الأفغان؛ وهم الإسلاميون المتطرفـون - كان بعضهم، مثل أسـامة بـن لادن، مـن خـارج أفغانسـتان - الـذين حـاربوا الاحـتلال السوفيتي. وكان تجنيد المجاهدين الأفغان دوماً في يد الاستخبارات الباكسـتانية، ولكـن تـم دعمهم مالياً أساساً من المملكة العربية السعودية ووكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية.

وفي العقد نفسه، أي في الثمانينيات، بدأت باكستان أيضاً بإرسال الجهاديين إلى القطاع الهندي من كشـمير. وكـما أوضـح لي ذات مـرة حميـد جُـل، مـدير وكالـة الاسـتخبارات الباكستانية في تلك الفترة: «لو قامت [الاستخبارات الباكستانية] بتشـجيع الكشـميريين، لكان الأمر قابلاً للتفهم. أي أن الشعب الكشميري ثار وفقـاً للشــرعية الدوليـة وميثـاق الأمم المتحدة، وواجب باكستان الوطني المساعدة على تحريـرهم، فـإذا خـرج الجهـاديون لاحتواء الهند وثبتوا جيشهم على أرضهم لسبب مشـروع، فلماذا لا ندعمهم؟». بجانبه، في غرفة معيشته في إسلام أباد، كانت تقبع قطعة كبيرة من جدار برلين أُهدِيَت إليه "من أهالي برلين" لأنه "وجّه أول صفعة" للإمبراطورية السوفيتية من خلال اسـتخدامه للجهـاديين في الثمانينيات من القرن العشـرين.

في محاولة للحد من نفوذ باكستان بعد انهيار النظام الأفغاني الموالي للسوفييت في عـام 1989، بدأت الهند تساند "تحالف الشمال" الأفغاني بقيادة أحمد شاه مسعود، وهو قائد من الطاجيك حصل أيضاً على مساعدات من إيران وروسيا. استمرت الهند في تزويد مسـعود بمستلزمات الحـروب الجبليـة الشـاهقة، ومستشـارين دفـاعيين، وقطـع غيـار لطـائرات مروحية وتقنيّين، وذلك بعد ظهور حركة طالبان التي حظيت بدعم باكستان.

شكلت فترة حكم طالبان، خلال الفترة 1994-2001 [خلال 1994-1996 بوصفها حركة تسيطر على أراض واسعة، وخـلال 1996-2001 بوصـفها تسـيطر عـلى العاصـمة والحكومة] ذروة النفوذ الباكستاني في أفغانستان. وأجـبرت الهنـد، التـي لم تعـترف بنظـام طالبـان، عـلى إغـلاق سـفارتها وكـل قنصـلياتها. وبتشـجيع مـن وكالـة الاسـتخبارات الباكستانية، صارت أفغانستان سـريعاً قاعدة لسلسلة لمجموعات مختلفة معادية للهند، من بينها جماعة لشكر طيبة، التي نفّذت في عام 2008 اعتداءها الدامي في مومباي.

مع حصر طالبان للتحالف الأفغاني الشمالي في جيوب صغيرة في أفغانستان بنهاية التسعينيات، بدعم من القوات الباكستانية النظامية، استمرت الهند وإيران بإرسال الدعم إلى قوات مسعود التي استمر حصارها بصورة متزايدة. وفي عام 2001، أنشأت الهند مستشفى في القاعدة الجوية التابعة لقوات مسعود في طاجيكستان بحيث يمكن توفير مكان لنقل الجنود الطاجيك المصابين للعلاج.

الفريق ر. ك. سوهني R.K. Sawhney، القائد الهندي الذي أشرف على برنامج المساعدات إلى التحالف الشمالي هذا، ذكر لي بوضوح وبحزن أول يوم تلقّى فيه المستشفى أول مصاب، فقد كان هو أحمد شاه مسعود نفسه، الذي اغتاله انتحاريان اثنان تظاهرا بأنهما مصوران.

كان تاريخ ذلك اليوم التاسع من سبتمبر 2001.

الحادي عشر من سبتمبر غيّر كل شيء

في باكستان، رضخ الفريق برويز مشرف - القائد العسكري الذي أطاح نواز شريف وحل محله في إثر انقلابه العسكري عام 1999 - سريعاً لضغط التهديدات الأمريكية للتحالف مع الولايات المتحدة بشكل لا لبس فيه. لاحقاً كشف في مذكراته: «كنا على وشك أن نصنّف دولةً إرهابية». وأضاف كاشفاً أولويته الاستراتيجية الشاملة: «في ذاك الموقف... ماذا كان يمكن أن يحصل لقضية كشمير؟».

نقضت مساندة مشرف للولايات المتحدة الأمريكية عقداً من سياسة باكستان الخارجية. وتبنّى حملة "الحرب العالمية على الإرهاب" التي أطلقها الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش الابن، فقطع علاقاته علناً بطالبان، وطالب باعتقال أعضاء تنظيم القاعدة. وبحلول عام 2007، وفق تقديراته الخاصة، أُلقي القبض على 672 منهم في باكستان، وتم تسليم 369 منهم إلى الولايات المتحدة. وقد أنقذ هذا باكستان من قصف أمريكي كاد يعيدها إلى "العصر الحجري"، وهو التهديد الذي ينسبه مشرف إلى ريتشارد أرميتاج Richard Armitage، نائب وزير الخارجية الأمريكية آنذاك (وينفي أرميتاج تفوهه بهذه الكلمات).

ألحق نقض السياسة الخارجية كثيراً من الضرر بالنفوذ الباكستاني في أفغانستان. وجاء ذلك في وقت بلغ فيه النفوذ الهندي ذروته القصوى بفضل اعتلاء حامد كرزاي السلطة بعد وقت قصير من هجمات الحادي عشر من سبتمبر.

في السنوات التالية، استغلت الهند فرصتها بحكمة في صوغ علاقة شراكة وثيقة مع أفغانستان. وأصبح برنامج المساعدات وإعادة الإعمار الذي بدأت أعماله في ثمانينيات القرن المنصرم سخياً جداً لدرجة أنه جعل الهند الجهة المانحة الكبرى في البلاد. وقد كان البرنامج أيضاً مدروساً بعناية، وأُشيد به بوصفه أحد أفضل جهود المساعدة المخططة والمحددة الهدف من أي دولة أخرى.

قامت الهند بمدّ طرق تربط أفغانستان بإيران بحيث يمكن أن تصل التجارة الأفغانية إلى الخليج في ميناء تشابهار [مدينة جنوب إيران، تطل على خليج عمان]، وتُخلّصها من الحاجة إلى الاعتماد على ميناء كراتشي الباكستاني. وقد تبرعت الهند ببناء - أو ساعدت على بناء - محطات توليد الطاقة الكهربائية، ومرافق صحية للأطفال ومبتوري الأطراف، وقدمت 400 حافلة كبيرة، و200 حافلة صغيرة، وأسطولاً من الطائرات للخطوط الجوية الأفغانية "أريانا". كما شاركت الهند في مدّ خطوط الطاقة، وحفر الآبار، وإدارة مشاريع الصرف الصحي واستخدام الطاقة الشمسية لإنارة قرى، بينما أنشأ موظفو الاتصالات الهنود شبكة اتصالات رقمية في 11 ولاية أفغانية. وقدمت الهند منحاً دراسية للالتحاق بجامعات هندية لألف طالب أفغاني كل عام، كما أدت دوراً محورياً في بناء مقر البرلمان الأفغاني الجديد في كابول بتكلفة 25 مليون دولار.

أدى كل هذا إلى أن تحظى الهند بشعبية هائلة في أفغانستان؛ فقد كشف استطلاع للرأي، أجرته محطتا آيه بي سي/ بي بي سي ABC/BBC في عام 2009، أن نظرة 74٪ من الأفغان للهند اتسمت بالإيجابية، بينما لم تزد نسبة من كانت لديهم نظرة إيجابية تجاه باكستان على 8٪.

على الرغم من أن الضغط الأمريكي أقنع الهند بعدم إرسال قوات إلى أفغانستان أو توفير الإمدادات العسكرية، فإن الباكستانيين مازالوا قلقين من مؤشرات تزايد النفوذ الهندي في المنطقة، وبخاصة أن كثيرين انتهوا إلى اقتناع أن الهند تستغل قنصلياتها في

أفغانستان لتحرّض على التمرد في بلوشستان الباكستانية. لقد أسر لي القنصل العام الهندي السابق في قندهار أنه التقى قادة من البلوش في قنصليته هناك، بيد أنه يزعم بأن سفيره في كابول أصدر إليه تعليمات صارمة بعدم مساعدتهم بأي شكل من الأشكال ضد باكستان. بالمقابل، ألمح إليّ بأن موظفي جهاز البحث والتحليل الهندي كانوا حاضرين بين طاقم عمل القنصليتين الهنديتين في قندهار وجلال أباد.

ليس من المستغرب أن تحتفظ الهند بموظفي استخباراتها في أمكنة العمل الحساسة هذه، ولكن لا يوجد دليل دامغ بأن جهاز البحث والتحليل الهندي أو أي وكالة هندية أخرى تتخذ إجراءات مضادة للباكستانيين رداً على حربهم الخفية ضد المصالح الهندية في أفغانستان. فقد تتبّعت وكالات الاستخبارات المركزية الأمريكية كل الأدلة المقدّمة من باكستان في هذا الشأن، ولم تجد أي دليل على أن الهند تساعد الانفصاليين البلوش بالطريقة التي تدعيها باكستان.

ومع ذلك، فإنه نتيجةً للشكوك العالقة بين زملاء الرئيس برويز مشرف في الجيش الباكستاني وفي وكالة الاستخبارات الباكستانية، فإن إعراضه عن طالبان بعد هجمات الحادي عشر من سبتمبر لم يدم طويلاً. وعلى الرغم من وعوده العلنية بعكس ذلك، فإن وكالة الاستخبارات الباكستانية دعمت حركة طالبان بفاعلية منذ عام 2002 وما بعده. وعلاوة على ذلك، فإن السرعة التي فقدت فيها الولايات المتحدة الاهتمام بأفغانستان بعد غزوها الناجح لها في عام 2001 أعطى الجيش الباكستاني الانطباع بأن الولايات المتحدة لم تكن جادة تجاه ارتباط طويل الأمد بنظام كرزاي. هذا الأمر أمدّ الباكستانيين بالأمل أنها يمكن أن تستخدم طالبان من جديد لإعادة تثبيت نظام موالٍ لباكستان في أفغانستان متى تركز الاهتمام الأمريكي على أمر آخر.

وهذا ما حدث، فبعد أشهر قليلة من الحادي عشر من سبتمبر وفرت وكالة الاستخبارات الباكستانية الملجأ لجميع قادة حركة طالبان بعد هروبهم من أفغانستان. فقد احتفظت هذه الوكالة بزعيم طالبان الملا عمر في منزل آمن تابع لها في كويتا، عاصمة مقاطعة بلوشستان، بينما أقامت مليشياته في بشتون أباد، وهي ضاحية مترامية الأطراف في كويتا.

وعاد القيادي الجهادي قلب الدين حكمتيار، زعيم الحزب الإسلامي المدعوم باكستانياً، بعد إغرائه، من منفاه في إيران وسُمح له بأن يعمل بحرية خارج بيشاور، بينما سمحت الاستخبارات الباكستانية لجلال الدين حقاني، أحد أعنف قادة طالبان، باللجوء إلى شمال وزيرستان. وعندما أصيب بالمرض، قيل إنه تلقى العلاج في مستشفيات باكستانية.

ومن أجل الإبقاء على التواصل مع مثل هذه الجماعات خارج نطاق مراقبة الاستخبارات الغربية، أنشأت الاستخبارات الباكستانية منظمة سرية جديدة، ضمت مدربين سابقين من الاستخبارات الباكستانية وضباطاً بشتونيين متقاعدين من الجيش، قاموا بتسليح حركة طالبان وتدريبها ومساندتها في معسكرات حول كويتا. وبحلول عام 2004، شوهدت شاحنات عسكرية باكستانية وهي تنقل مقاتلي حركة طالبان إلى الحدود الأفغانية وتعيدهم منها بعد بضعة أيام؛ والتقطت وحدة مراقبة لاسلكية في القاعدة الأمريكية في باغرام اتصالات بين قادة من حركة طالبان مع ضباط من الجيش الباكستاني على الحدود لإجراء ترتيبات توفير ممر آمن لدخولهم وخروجهم من أفغانستان. وبحلول عام 2005، شنّت حركة طالبان، بمساعدة خفية من باكستان، هجمات واسعة النطاق على قوات حلف شمال الأطلسي "الناتو" في أفغانستان.

منذ ذلك الوقت أثبتت حركة طالبان نجاحها الباهر في معقلها بجنوب أفغانستان. وبحلول عام 2006، صار لطالبان حضور في أكثر من 70٪ من مناطق البشتون، وتمكّنوا في عديد من المناطق الريفية الجنوبية من استئناف عمليات جمع الضرائب وفرض الشريعة وإقامة عدالتهم الصارمة المعتادة. ويتعاظم مجال نفوذهم كل شهر. ووفقاً لتقرير صادر عن وزارة الدفاع الأمريكية (البنتاغون) في عام 2009، فإن حكومة كرزاي لا تسيطر إلا على 29 مقاطعة من أصل 121 مقاطعة استراتيجية في مختلف أنحاء أفغانستان. وفي عام 2011، ارتفع عدد هجمات طالبان لتصل إلى 12244 هجوماً، وهي خمسة أضعاف ما كانت عليه في عام 2006.

ولكن إذا حققت حروب باكستان بالوكالة على أرض المعركة نجاحاً غير متوقع، فإنه يمكن القول أيضاً إن كرزاي استمتع ببعض النجاحات المفاجئة على الجبهة

السياسية، عبر تلاعبه البارع بجيرانه. ففي يونيو 2010، قرر كرزاي محاولة التفاوض مع طالبان، لبثّ القلق لدى الهند والولايات المتحدة الأمريكية. وخلال التحضير لهذه المفاوضات، قام كرزاي بعزل أمرُ الله صالح، رئيس جهازه الأمني الموالي للهند بشدة والمعادي بقوة لباكستان. كان صالح شخصية قوية ولامعة من الطاجيك، وبرز بوصفه أحد من تتلمذوا على يد أحمد شاه مسعود، واعتبرته حركة طالبان وحلفاؤها في الاستخبارات الباكستانية أشرس أعدائهم. وكما قال بروس ريدِل Bruce Riedel، مستشار الشؤون الأفغانية-الباكستانية للرئيس الأمريكي باراك أوباما حينها (وهو حالياً عضو بارز في معهد بروكينغز)، عندما أشيع خبر عزل صالح: «قرار كرزاي بطرد صالح أقلقني أكثر من أي تطور آخر، لأنه يعني أن كرزاي قد بدأ بالتخطيط لأفغانستان ما بعد الحقبة الأمريكية».

لأول وهلة، بدا أن التقارب مع باكستان قد يُؤتي ثماره. تحرَّك رئيس الاستخبارات الباكستانية، الفريق أحمد شجاع باشا والفريق أول أشفق كياني قائد الجيش الباكستاني، بين كابول ومقر الجيش الرئيسي في روالبندي، لإنجاز ما يبدو أنه تحفيز لمصالحة بين كرزاي وشبكة حقاني الجهادية، المدعومة من الاستخبارات الباكستانية، والتي ستترك كرزاي في السلطة في كابول مقابل سيادة موالية لباكستان أكبر في الجنوب. بل كان هناك أيضاً محادثات حول موافقة باكستان على المساعدة في تدريب قوات الجيش الوطني الأفغاني.

ولكن في النهاية، دامت المصالحة أقل من سنة. فقد اختلف كياني وكرزاي مجدداً، وفي عام 2011، انقلبت الآية عندما زار رئيس وزراء الهند، مانموهان سينغ، كابول، حيث وقّع اتفاق شراكة استراتيجية واعداً بتعاون أعمق في قضايا الأمن الوطني، مع اتفاق على توفير أسلحة خفيفة، وتدريب على مكافحة التمرد والحروب في المرتفعات الشاهقة.

بحلول يونيو 2012، هاجمت الولايات المتحدة الأمريكية ما سمّته علانيةً حليفها الخائن. ففي رد فعل على أدلة إضافية تدين باكستان في هجمات استهدفت مصالح أمريكية في أفغانستان واستضافة أسامة بن لادن على أراضيها، سواء بشكل مقصود أو لا، قال وزير الدفاع الأمريكي ليون بانيتا إن "صبر" الولايات المتحدة "كاد ينفد" تجاه باكستان.

وبوسيلة أشد تعبيراً عن هذا الامتعاض، أقرّ لأول مرة بأن يتلقى الجيش الأفغاني تدريباً هندياً. ورفع هذا الأمر مخاوف باكستان وحالة انعدام الثقة بالهند إلى مستوى أعلى، وانحدرت علاقاتها مع الولايات المتحدة إلى مستوى أدنى، خصوصاً في مواجهة تصاعد الغضب الباكستاني تجاه تحول أراضيها إلى مناطق قتل بالطائرات الأمريكية من دون طيار.

أفغانستان ما بعد الحقبة الأمريكية

بعد اثني عشر عاماً من توجه المجتمع الدولي إلى أفغانستان لتدمير تنظيم القاعدة وعزل نظام طالبان، ها هي القوات الغربية على وشك الانسحاب من دون أن تحقق أياً من الهدفين. فطالبان تسيطر الآن على معظم المناطق الريفية في جنوب أفغانستان، ويحتمل أن تتسع هذه السيطرة في العام المقبل عندما تسحب القوات البريطانية والأمريكية جنودها البالغ عددهم 100 ألف جندي. وعلى الرغم من تعرض تنظيم القاعدة الذي انتقل إلى المناطق الحدودية الباكستانية وأمكنة أخرى لضرر بالغ، فإن نهايته مازالت بعيدة.

مستقبل حامد كرزاي نفسه غير مضمون، فعليه أن يتنحى من منصبه في عام 2014 وفقاً للدستور. وخلال زيارتي الحالية الى إسلام أباد، سمعت من كل المسؤولين الرفيعي المستوى ومَن دونهم في وزارة الخارجية أن كرازي يعاني مشكلات حادة في صحته العقلية.

ومع ذلك فإن كرازي ليس أحمق ولايزال يحتفظ بوجهة نظر قوية حيال علاقات باكستان بعدوّه حركة طالبان. قال لي في كابول في مارس [2013] وهو يلوح بأصبعه في الهواء: «لقد حذرتهم»، وأضاف: «قوات الأمن الأفغانية تزداد قوة كل يوم! ولا يمكن لأي حكومة أفغانية أن تقيم علاقة طيبة مع [الرئيس الباكستاني آصف علي] زرداري، أو نواز شريف [الذي انتخب رئيساً للوزراء] أو أي شخص آخر، فنحن كلنا نعرف من يتلاعب بخيوط اللعبة، الملالي ووكالة الاستخبارات الباكستانية... لقد أجاز مجلس علماء باكستان مؤخراً العمليات الانتحارية في أفغانستان. من الواضح جداً ما يجري. بعض حلفائنا (البريطانيون منهم تحديداً) أخبروني أن باكستان قد تغيرت. هل أصدق هذا؟».
وضحك كرازي من أعماق قلبه، وقال ضاحكاً: «لن يحدث ذلك!».

على الرغم من كل الفشل الذي مُني به حامد كرزاي، وكل القوى التي اصطفّت ضده، فقد تمكن من البقاء في السلطة في كابول على مدى 12 عاماً، وتجاوز بنجاح كل النكسات التي كانت يمكن أن تسقط رجلاً أقل أهمية منه. فمن خلال تحريض كرزاي كلاً من الهند وباكستان وإيران والصين بعضها ضد بعض، ومن خلال التلاعب بمهارة بالولايات المتحدة الأمريكية و49 دولة أخرى ساهمت قواتها في قوة "إيساف"، تمكّن بنجاح من تحقيق تقدم بأهداف أفغانستان الجيوسياسية والاقتصادية. وعلى الرغم من انفعالات كرزاي بين الحين والآخر، فقد عرف كيف يستميل جيرانه من أجل التنافس على علاقة جيدة مع أفغانستان. فبعد توقيعه على اتفاقية الشراكة الاستراتيجية مع الهند، طمأن باكستان أن الاتفاقية «ليست موجهة إلى دولة بعينها».

علاوة على ذلك، وعلى الرغم من الفساد الكبير في نظام حامد كرزاي، فقد تغيّرت أفغانستان في عهده بشكل جذري وللأفضل؛ إذ توسّعت المدن، وتمتع سكان المناطق الريفية بحرية التنقل الآن إلى أبعد من حدود أودية أسلافهم، وصار الناس بشكل عام أكثر رخاء وأفضل تعليماً. كما ساهم التلفزيون والإنترنت والصحافة النشطة في توسيع مدارك الكثيرين. قد تكون طالبان قادرة على التسبب بإرباكات واسعة، إلا أن عدداً قليلاً من المراقبين من داخل الدولة وخارجها يعتقدون أنها قوية بما يكفي لتعود وتستولي على كابول أو على المناطق الشمالية. وتظل حركة طالبان قوة بشتونية ريفية لديها قلة من المؤيدين شمالي كابول. بعد الانسحاب الأمريكي، سيتمكن من يخلف كرزاي على الأرجح من الصمود في كابول الحصينة ومواصلة التلاعب بجيران أفغانستان.

أما مستقبل باكستان، فهو على الأقل بنفس غموض مستقبل أفغانستان. بعد 14 عاماً من الانقلاب العسكري الذي أطاح نواز شريف، نظّم شريف عودة سياسية مذهلة وعاد مجدداً رئيساً لوزراء باكستان، بينما يقبع مدبر الانقلاب، برويز مشرف، قيد الإقامة الجبرية، ويواجه التهديد بالإعدام شنقاً، وهو التهديد ذاته الذي واجهه نواز شريف في عام 2000.

وتأمل كل جماعات المصالح الباكستانية وتسعى جاهدة للاستفادة من تحولات الأقدار وكيفية تأثيرها في سياسات البلاد الداخلية والخارجية. وزيرة خارجية باكستان في عهد

الرئيس زرداري، حنا رباني خار، والتي تردّد أنها مقرّبة من الجنرال كياني، لفتت نظري مراراً إلى أن باكستان تخوض حالياً حرباً داخلية كبيرة مع حركة طالبان باكستان، وزعمت أن عودة طالبان أفغانستان إلى الحكم في كابول هو آخر ما تحتاجه أو تريده بلادها. غير أن معظم المراقبين الأفغان والهنود سيسخرون منها، بحجة أنها تحاول أن تخدعهم وتحرف اهتمامهم، تماماً كما فعل كرزاي معي حين أصر على أن دوافع باكستان لم تتغير.

ولكن بالطبع هناك عديد من الأسباب الوجيهة التي تفسر قلق الباكستانيين من الجهاديين الذين مولوهم ودربوهم بحماسة على مدى ثلاثة عقود. فبينما مازال كثيرون في الاستخبارات الباكستانية يؤمنون بأنهم يستطيعون استخدام الجهاديين من أجل أغراضهم الخاصة، زاد امتثال الإسلاميين لأجندات تضعهم موضع خلاف مع مموّليهم، فيرسلون انتحاريين ليس بهدف استهداف الأقليات الدينية في باكستان وبخاصة الشيعة وقادتهم السياسيين فحسب، بل حتى استهداف المقر الرئيسي لوكالة الاستخبارات الباكستانية ذاتها في "معسكر حمزة". ووفقاً للوصف الموجز والدقيق من السفير الأمريكي السابق لدى باكستان، كاميرون مَنتِر Cameron Munter: «إذا أنت ربّيت أفاعي في باحتك الخلفية، فسوف تُلدَغ».

إن الخطر الذي يمثله الجهاديون، ليس على الهند فحسب، بل وعلى باكستان أيضاً، يتضح بازدياد للجميع. ففي أواخر فصل الربيع، عندما حاولتُ تناول الإفطار مع صديق باكستاني يعيش قرب المدرسة العسكرية الأساسية في لاهور، لم أستطع الوصول إليه لأن كل الطرق في منطقة معسكر لاهور كانت مغلقة بحواجز التفتيش. ووفقاً للجنود الذين كانوا على الحواجز، فإن قادة الجيش أصبحوا شديدي الخوف من طالبان باكستان، بحيث يضطرهم الأمر الى إغلاق معظم أحياء مدينة لاهور يومياً ليضمنوا ذهاب أبنائهم إلى المدارس وعودتهم منها سالمين. وتوقفوا أيضاً عن استعمال لوحات أرقام عسكرية لسياراتهم، مدركين أنها قد تلفت انتباه انتحاريي طالبان باكستان.

يرى الدبلوماسيون البريطانيون في إسلام أباد أن الجيش الباكستاني يخشى الآن من عدم الاستقرار الذي يتسبب به الجهاديون أكثر من خشيتهم من الهند، وهو ما غيّر بالفعل

من موقفه تجاه الجهاديين. وكما صرح الفريق أول كياني مرة في خطاب مهم في إبريل [2013] عشيّة الانتخابات، قائلاً: «تهديد الإرهاب والتطرف اختطف آلاف الأرواح، بمن فيهم عناصر من الجيش، وقوات الصاعقة، والشرطة وحرس الحدود... والشعب الباكستاني البريء. ثمة فصيل صغير يريد أن يفرض أيديولوجيته المشوّهة على الوطن بأكمله بحمل السلاح، ولهذه الغاية، يتحدى الدستور الباكستاني والعملية الديمقراطية». وطالب في خطابه المقاتلين بإلقاء أسلحتهم وقبول دستور الدولة بشكل غير مشروط.

أدى ذلك إلى شعور المراقبين للشأن الباكستاني بأن قادة الجيش ربما يكونون قد غيّروا موقفهم تجاه مخاطر استراتيجيتهم الطويلة الأمد في أفغانستان. فقد أبلغ الفريق أول كياني مسؤولاً عسكرياً أمريكياً رفيع المستوى مؤخراً أن تدهور الوضع في أفغانستان إلى حرب أهلية فوضوية بعد رحيل الأمريكيين قد يكون سيئاً لأفغانستان، ولكنه كارثة بالنسبة إلى باكستان. ويخشى الجيش الآن من احتمال أن تخلق عودة طالبان إلى سدة الحكم في كابول ملاذاً في أفغانستان لأعضاء طالبان باكستان وغيرهم من الساخطين.

إن استمرار الاشتباكات بين الهند وباكستان في أفغانستان، بعد انسحاب الولايات المتحدة أمر خطير لكل الدول الأخرى في المنطقة وفي العالم، خصوصاً بعد التقرير الذي يتناول ولع باكستان بتطوير أسلحة نووية تكتيكية لاستخدامها على أرض المعركة في نطاق أدنى من 40 ميلاً، مثل صاروخ "حتف 9" الذي اختبر حديثاً. ويبدو أن باكستان تختبر كذلك أجهزة نووية صغيرة محدودة الفوائد، مثل الألغام الأرضية، المصمّمة افتراضاً لتدمير تشكيلات الدبابات الهندية الكبيرة التي قد تتوغل داخل الأراضي الباكستانية.

يمثل منح باكستان الأولوية لهذه الأسلحة وللسيناريوهات التي سوف تستخدمها فيها أحدث وأكثر المظاهر مدعاة للقلق بخصوص تركيز الحكومة على الهند كمصدر يهدد وجود باكستان. غير أنه في الواقع، من الواضح أن تهديد وحدة أراضي باكستان وسيادتها لم يعد قادماً من الهند على الإطلاق، كما لم يكن كذلك - جدلاً - يوماً ما. بل إن هذا التهديد نبع من داخل باكستان نفسها بسبب السياسات التي مارستها على مدى سنين.

وكذلك الحال بالنسبة إلى الهند، فإن التهديد الحقيقي على هيمنتها في المنطقة ليس قادماً من باكستان بقدر ما هو قادم من التنين المطلّ على الجانب الآخر من جبال الهيمالايا؛ وهو الصين، التي تسيطر الآن على موارد معدنية طبيعية مهمة في أفغانستان.

في عام 2008، حصل تكتل تعدين صيني (يتألف من المجموعة الصينية للصناعات المعدنية المملوكة للحكومة الصينية ومؤسسة جيانكسي كوبر التجارية) على حق استغلال النحاس في منجم وادي "أيناك" في أفغانستان لمدة 30 عاماً مقابل 3 مليارات دولار. وقد قدّروا بأن الوادي يحتوي بشكل محتمل على نحاس تقدر قيمته بنحو 100 مليار دولار، وهو على الأرجح أكبر احتياطي للنحاس من نوعه في العالم، ويحتمل أن تبلغ قيمته حوالي خمسة أضعاف القيمة التقديرية للاقتصاد الأفغاني برمته.

كذلك، تعمل الصين على تدريب أول دفعة من رجال الشرطة الأفغان، وتتألف من 300 مجند. ويمكن القول إن الصين هي التي تستجيب لها المؤسسة الأمنية الباكستانية. فإذا أكملت الصين استثمارها في الموارد المعدنية الأفغانية وشق الطرق ومد السكك الحديدية التي ستستخدم لاستخراج المعادن، فإنها ستتوقع من باكستان أن تحمي مصالحها وألا تسمح لحركة طالبان بأن تعطل هذه العمليات في أفغانستان. وهذا الأمر قد يصبح نعمة لسلام مستقبلي في أفغانستان. الهنود بالطبع، ينظرون إلى هذه التطورات بشيء من الشؤم. ولكن، جرت مؤخراً محادثات سرية في بكين بين مسؤولين صينيين وهنود لمناقشة مصالحهم في أفغانستان بعد الانسحاب الأمريكي.

يعتمد كثيرون على ما ستقرر الهند فعله. فليس واضحاً الآن ما إذا كانت حكومتها ستختار أن تقوم بدور أوسع في أفغانستان بعد رحيل القوات الأمريكية. أما بعض الصقور، في الجيش الهندي ووزارة الخارجية الهندية، فيجادلون بأن تبنّي دور أكثر صلابة، وربما يكون عسكرياً أيضاً، في أفغانستان سوف يسمح للهند بأن تملأ الفراغ الأمني الذي سينجم عن الانسحاب الأمريكي، وسيسمح لها بتوسيع مصالحها الإقليمية، والتنافس مع الصينيين على النفوذ في أفغانستان وصد أعدائهم الباكستانيين في الوقت نفسه. ثمة آخرون في نيودلهي يجادلون بأنه عبر تأجيج جنون ارتياب باكستان، فإن الهند ستخيف إسلام أباد

وتدفعها إلى المضي قدماً في الهجوم وتقديم دعم أكبر من أي وقت مضى لحركة طالبان، وهو في المقابل يمثل خطراً على كل من الهند وباكستان.

قد تعزز الجهود التي يبذلها نواز شريف لمد يده إلى الهند موقف المعتدلين في نيودلهي. ولكن يبقى ثمة تساؤل بشأن: هل لديه وضوح في الرؤية والجلَد والإرادة السياسة ومجال للمناورة في ذاك الاتجاه؟ أما ما هو في حكم المؤكد، فهو أن المستقبل سيكون أكثر إشراقاً للدول الثلاث المأسورة بين أضلاع مثلث دامٍ يملؤه انعدام الثقة والتنافس في حال غيّرت باكستان والهند نظرتهما تجاه أفغانستان واعتبرتا عدم استقراره تحدياً مشتركاً يتعين عليهما مواجهته بالتعاون معاً، بدلاً من اعتباره أرض معركة يكملان فيها، أو ما هو أسوأ، يصعّدان عليها خصومتهما الطويلة والمريرة.

مراجع إضافية

Stephen P. Cohen, *Shooting for a Century: The India-Pakistan Conundrum* (Brookings, 2013).

Bruce Riedel, *Avoiding Armageddon: America, India, and Pakistan to the Brink and Back* (Brookings, 2013).

Vanda Felbab-Brown, *Aspiration and Ambivalence: Strategies and Realities of Counterinsurgency and State-Building in Afganistan* (Brookings, 2012).

Bruce Riedel, *Deadly Embrace: Pakistan, America, and the Future of the Global Jihad* (Brookings, 2012, revised edition).

Stephen P. Cohen, ed., *The Future of Pakistan* (Brookings, 2011).

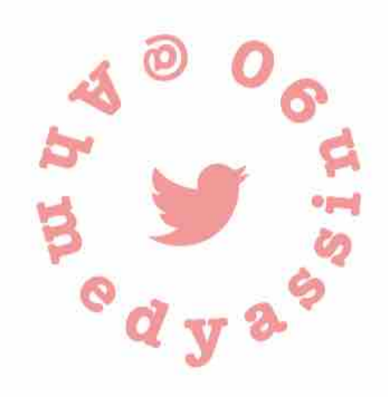
Michael E. O'Hanlon, "History Does Not Condemn Afghanistan to Failure or India and Pakistan to Rivalry There," Brookings, 2013, at: http://www.brookings.edu/blogs/up-front/posts/2013/07/03-afghanistan-india-pakistan-ohanlon.

نبذة عن المؤلف

وليام داريمبل William Dalrymple؛ مؤلف لتسعة كتب تناولت موضوعات تتعلق بالهند والعالم الإسلامي، منها بعض الكتب التي فازت بجوائز؛ مثل: **مدينة الجن**؛ **والمغول الأبيض**؛ و**المغول الأخير**؛ و**تسع حيوات: في البحث عن المقدّس في الهند الحديثة**. أشرف حديثاً على عرض كبير عن فن المغول في الجمعية الآسيوية في نيويورك. وصدر كتابه الجديد **عودة ملك: المعركة من أجل أفغانستان 1839 - 1842** عن دار "ألفريد نوف" للنشر في فبراير 2013. يكتب دورياً لجريدة **نيويوركر**، و**نيويوركر ريفيو أوف بوكس**، و**الجارديان**. وهو أحد مؤسسي مهرجان جايبور الأدبي، ومشارك في الإشراف عليه. حصل على شهادة الدكتوراه الفخرية من جامعات سانت أندروز وأبِردين وبرادفورد ولاكناو، وعلى زمالة جامعة برنستون. للمزيد عن أعماله، انظر: http://www.williamdalrymple.uk.com.

تصوير

أحمد ياسين


@Ahmedyassin90

دراسات عالمية

Panton 5575 C



المثلث الدامي
أفغانستان وباكستان والهند

وليام داريمبل



مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية

العدد 138